المحاضرة الأولى

مدخل إلى التعليمية (تاريخها ونشأتها)

لتكن انطلاقتنا من حوار دار بين أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان والأحنف بن قيس عن الولد مجيباً هذا الأخير عن سؤال معاوية فقال:" يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول عند كل جليلة، فإن طلبوا فأعطيهم، وإن غضبوا فأرضيهم يمنحوك ودهم، ... لا تكن عليهم قفلاً فيتمنوا موتك، ويكرهوا قربك، ويملوا حياتك، فقال له معاوية: لله أنت! لقد دخلت علي وإني لمملوء غيظاً على يزيد، ولقد أصلحت من قلبي له ما كان قد فسد". بهذه الأخلاق التربوية ينبغي أن يكون تعاملنا مع أبنائنا، وأن تكون نظرتنا لهم ايجابية، وأن نغدق عليهم من عطفنا وحبنا.

إن سرّ تقدم المجتمعات ورقيها، لا يعود إلى مدى تطور صناعاتها، ورقي اقتصادها، بقدر ما يتوقف أساساً على ما توليه من اهتمام بمنظوماتها التعليمية والتربوية، والطموح الذي يساور الإنسان دائماً هو بناء حضارة يعيش في ظلها كريماً، وسيلته الأساسية في ذلك هي التدريس الناجح والنافع، والقائم على أسس علمية ومنهجية، مما يوجب على القائمين على المنظومات التربوية والتعليمية التفكير الدائم في تطوير طرائق التدريس، وآليات التعليم وأهدافه.

لا نبالغ إن قلنا إن رفاهية الإنسان المعاصر هي نتاج التعليم والتعلم، الذي سهل سبل العيش في مختلف الميادين (اقتصادية كانت أو اجتماعية، وحتى علمية..)، لهذا نجد المتخصصين في الديداكتيك Didactique يولون بالغ الأهمية لتطور التدريس والتفكير في مشكلاته، كموضوع رئيسي في العملية التعليمية حتى يؤتى التدريس ثماره، وقد كان العالم قد شهد الاهتمام أكثر بديداكتيك المواد منذ بداية سبعينيات القرن الماضي.

قبل الحوض في الحديث عن حيثيات وتفاصيل نشأة التعليمية وتاريخها، لابد من التطرق لموضوع التربية، مفهومها، غاياتها وأهدافها، خاصة وأن موضوعنا هذا بصلة مباشرة بعلم النفس وعلوم التربية، فالتعليمية فرع من فروع علوم التربية، ثم تجدر الإشارة إلى الحديث عن التربية والفلسفة، أو فلسفة التربية، ثم الحديث عن تعليمية الفلسفة.

1- مفهوم التربية:

أ/ التعريف اللغوي: تعود كلمة تربية إلى أصول ثلاثة؛ الأصل الأول: من الفعل ربا أي نما وزاد، يقول سبحانه وتعالى في سورة الحج، الآية (5) ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾، أي نمت وزادت. أما الأصل الثاني: ربى يربي، على وزن خفي يخفي، ومعناه نشأ وترعرع، وربيت فلاناً، أربيه تربية.

الأصل الثالث: ربّ، يرب الشيء، بمعنى أصلحه، وتولى أمره وساسه وقام عليه، إن أصل اشتاق التربية من رب، وليس ربا فيقال رب ولده وأحسن القيام عليه، إن الراء والباء يجتمعان على معنى السمو والإصلاح مع اختلاف بسيط في تدرج هذا المعنى، ففي

الأمور المادية نقول ربا، يربو، تعبيراً عن زيادة مادية، بينما عندما يتعلق الأمر بالإنسان أو الحيوان فإننا نقول ربى يربي، بمعنى ترعرع في بيئة معينة، ويستعمل في التعبير عن الأمور المعنوية ربّا، يربّا لتكريم النفس عن الخطايا، ويستعمل للرقي بالجوهر رب، يرب، على وزن مد يمد حتى نصل إلى الرب الخالق لكل شيء.

ب/ التعريف الاصطلاحي: لقد مارس الإنسان التربية منذ القدم، مما جعل مفهومها يشع ويتداول بين الجميع إلى درجة أن تعريفها يبدو بسيط الاستعمال، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الاعتقاد، ويدرك المرء أن تعريف التربية هو من قبيل السهل الممتنع، ولذا نجد أدبيات التربية تزخر بتعاريف كثيرة ومختلفة ترجع إلى مقاربات عدة متباينة، ولا يتسع المجال لذكرها كلها، لهذا ننوه إلى البعض منها حسب المراحل التاريخية والثقافات الاجتماعية؛

تعددت تعريفات التربية تبعاً لتغير الزمان وتطور المفاهيم، وظهور الفلسفات والنظريات المختلفة على مر العصور والثقافات: هذا أفلاطون" التربية تضفي على الجسم والنفس كل جمال وكمال ممكن لها"، عرفها الغزالي" بأنها صناعة التعليم بهدف غرس الفضيلة والتقرب إلى الله"، يعرفها جان جاك روسو' بأنها تهيئة الفرص لتنمية الطفل حسب طبيعته وانظلاقاً من ميوله"، أما رفاعة الطهطاوي يعرفها بالقول" التربية هي التي تبني خلق الطفل على ما يليق بالمجتمع الفاضل، وتنمي فيه جميع الفضائل التي تصونه من الرذائل، وتمكنه من مجاوزة ذاته للتعاون مع أقرانه على فعل الخير"، والفيلسوف الأمريكي جون ديوي" التربية هي الحياة، وهي عملية تكيف بين الفرد وبيئته".

2- أهداف التربية وغاياتها:

تتجه أهداف التربية إما إلى وجهة جماعية اجتماعية، أو إلى وجهة فردية وقد فصل فيها فلاسفة مهتمون بالفعل التربوي ونذكر ما يلي؛

- الإنسان في نموه خاضع للتفاعل المستمر بين المجتمع والبيئة المادية من ناحية، وبين قواه ومواهبه الطبيعية والفطرية من ناحية أخرى.
- عاملي التربية المقصودة الأسرة والمدرسة، يمكن توجيههما بحيث تهدف في تربية الطفل إلى أغراض معينة هي من وضع المجتمع ولمصلحته وخدمته.
- كانط" إن مهمة الحكومة هي مساعدة الفرد على النمو، لا أن تستبد به وتستعبده وتستغله. واحترام كل فرد واجب باعتباره غاية مطلقة في حد ذاته".
- نيتشه" إن غاية الإنسان هي تحقيق الإنسان الأعلى (سوبرمان) لا الجنس البشري بأسره، وآخر ما ينبغي للمفكرين أن يهتموا به هو تحسين الإنسانية وإصلاحها، فلا صلاح للإنسانية، بل ليس للإنسانية وجود على الإطلاق، وكل ما يوجد هو العناية بقواه حتى يصل إلى أقصى ما يمكن من الكمال".

- أما روسو، فهو ينادي بحق الفرد في حرية التربية، وجعل هدف التربية هو تنمية ما عند الفرد من قوى الطبيعة، غير أن الفرد لا يمكنه أن يستكمل نمو فرديته إلا بحياة غيره، فهو عضو في جماعة لا يستغني نموه عنها، ولا من غاياتها وأهدافها.
- التربية الصحيحة هي التي تجمع بين الهدفين الفردي والاجتماعي، وهي التي تنمي الفرد حتى يقوي من غايات وأهداف الجماعة الصالحة، ويعمل على تحقيقها، وقد أكد هذا الفيلسوف جون ديوي، في اعتقاده أن التربية المجدية هي نتيجة إثارة قوى الطفل عن طريق مطالب الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها، وأن لعملية التربية ناحيتان؛ الأولى نفسية تتصل بالفرد، والثانية اجتماعية تتصل بالمجتمع، فليس أحدهما تابعة للأخرى، أو خاضعة لها، أو مهملة بالنسبة لها.
- الأولى هي الأساس، غرائز الطفل وقواه النفسية تعطي المادة الضرورية للتربية، ومعرفة الظروف الاجتماعية لازمة لتفسير قوى الطفل وجعلها تعبر عن نفسها في الحياة العملية.

كل تقدم ورقي يصيب الأفراد عن طريق التربية، يكون له أثره في تقدم المجتمع ورقيه.

3- لمحة تاريخية عن ظهور ونشأة التعليمية

إن الجهود المكثفة التي بذلت في ميادين التعليم خلال عشرات السنين الأخيرة بغية تحسين الأداء التربوي انتهت إلى ضرورة فهم العملية التعليمية العامة أكثر من قبل القائمين عليها، إلى معرفة حقة بأقطابها المتمثلة في المرسل (المعلم/ الأستاذ)، والمتلقي (المتعلم/ المتكون)، والمادة التعليمية، والعلاقة التي تربط كل عنصر بأخر. ونظرا للدور الخطير الذي يلعبه كل عنصر من هذه العناصر الثلاث في العملية التعليمية، والأثر الذي يتركه كل واحد في العنصر الأخر برزت إلى الوجود في المجال التربوي، ما يصطلح عليه "بالتعليمية" أو "الديداكتيك".

تشير بعض المعاجم المتخصصة إلى أن كلمة الديداكتيك ظهرت كصفة في القرون الوسطى، حيث تم إدراجها في معجم (Le Grand Encyclopédie) عام 1554م، وهو اصطلاح مشتق من الأصل اليوناني ديداكتيكوس ، ومنحدر من اللفظ ديداكسين (Didaksine) وتعني درس (Enseigné)، يقصد بها كل ما يوحى إلى التثقيف، أي التزود بالمعارف والأفكار، والمعارف بهدف بناء الشخصية.

وقد استخدمت لفظة الديداكتيك في علم التربية سنة 1613م، من قبل كومن هيلنج وراتيش (K.Heling, W.Ratich) في بحثهما حول نشاطات التعليمية، وقد استخدما هذا المصطلح كمرادف لفن التعليم، وكانت تعني عندهم نوعا من المعارف التطبيقية والخبرات، كما استخدمه كامنسكي (Kamenskis) سنة 1657، في كتابه " الديداكتيك الكبرى"، حيث يقول" أنها تعرفنا بالفن العام للتعليم في مختلف المواد التعليمية"، ويضيف بأنها ليست فقط للتعليم، بل للتربية أيضاً.

واستعمل دومارسي (De Marsais) مصطلح الديداكتيك بمعنى العلم الذي يهتم بتنظيم عمليات التدريس وكيفية انجازها، ويرى مؤلف كتاب" مسألة الديداكتيك La Didactique en question"، أن تبلور مبحث الديداكتيك في القرن 17 ليس

صدفة، بل يرتبط بهيمنة فكرة المنهج –منذ أن صاغ مبادئها رونيه ديكارت– أي تنظيم عمليات التفكير، كما تبلوت أكثر في القرن 18 فكرة عقلنة الفعل البيداغوجي مع الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط الذي دعا في انتقاده لعقم التعليم المدرسي إلى عقلنة الأساليب البيداغوجية الموظفة في التربية المدرسية، إذ يقول" ينبغي أن يصبح فن التربية أو البيداغوجيا معقلناً ومنظماً، إذا وجب عليه تنمية الطبيعة البشرية وتطويرها بشكل يجعلها تحقق غاياتها التي تسعى إليها".

فكرة المنهج لم تعد تعني العقل وقيادته نحو اكتشاف الحقائق –كما يذكر ديكارت– بل أصبحت قابلة للتطبيق في مجال التعليم، فقد وجه مؤلفوا "Encyclopédie " خصوصاً ديدرو و دالمبير (Diderot et D'Alembert) في فقرة "Collèges" انتقادات شديدة اللهجة لطرق التدريس السائدة في المؤسسات التعليمية، وقد تضمنت المواد المخصصة لـ"المنهج"، **مسائل** وإشكالات خاصة بالديداكتيك، وأدى توسع المؤسسات المدرسية في القرن 19 للعمل على ملائمة المعارف العالمة وتكييفها مع غايات التعليم وأهدافه، ويولد ما يعرف حالياً بالمواد المدرسة.

استمر مفهوم التعليمية كفن للتعليم إلى أوائل القرن التاسع عشر، حيث جاء الفيلسوف الأماني فريدريك هاربارت (F.Herbert) الذي وضع الأسس العلمية للتعليمية كنظرية للتعلم، تستهدف تربية الفرد، فهي نظرية تخص النشاطات المتعلقة بالتعلم فقط، أي كل ما يقوم به المعلم من نشاط، فاهتم الهربرتيون بصورة أساسية بالأساليب الضرورية لتزويد المتعلمين بالمعارف، واعتبروا الوظيفة الأساسية للتعليمية هي تحليل نشاطات المعلم في المدرسة.

وفي بداية القرن الماضي ظهرت مدرسة التربية الحديثة مع جون ديوي (J. Dewey) 1959م، وغيره، والذي أكد على أهمية النشاط الحي والفعال للمتعلم في العملية التعليمية، واعتبر الديداكتيك نظرية للتعلم لا للتعليم. كما ساهمت الأبحاث في اللسانيات خاصة في ظهور استقلالية تعليمية اللغات، بعد استقلال لسانيات اللغات عن السانيات النظرية، بدوره ساهم علم التقويم بأبحاثه المختلفة حول ظاهرة ضعف التحصيل الدراسي في بناء التعليمية لنفسها منهاجا وموضوعا خاصاً وهو الفشل المرسي الذي كان سبباً مباشراً في استقلالية التعليمية بموضوعها ومنهجها الخاص.

وفي المربع الأخير من نفس القرن أخذ مصطلح تعليمية المواد (Didactique des disciplines) يبرز بقوة في مقابل التراجع في استخدام مصطلح التربية العامة (Pédagogie générale)، وقبل هذه المرحلة كان يتم التركيز في إعداد المعلمين مثلاً على تمكن المعلم من المادة التي يعلمها، ومن معرفته بمحتوى منهج هذه المادة، وكان تعليم المادة يستند إلى الموهبة الشخصية، الفن في قيادة الصف وإدارته، تأميناً للنظام والانضباط.

وإذا ما التفتنا التفاتة سريعة إلى الظروف التي ظهر فيها مصطلح التعليمية في الفكر اللساني والتعليمي المعاصر، نجد ذلك يعود إلى ماكاي (M.F.Makey) الذي بعث من جديد المصطلح القديم Didactique للحديث عن المنوال التعليمي.

لقد ترافق بروز مصطلح (التعليمية) مع مجموعة تحولات وعلى رأسها انتقال المحور في التربية والتعليم من المعلم إلى المتعلم، وهذا الأخير الذي أضحى عمود العملية التعليمية، وقد تحولت النظرة إلى المعارف التي تدور عليها العملية التعليمية، ففي الماضي

كانت المعارف بضاعة يمتلكها المعلم، ويجتهد في نقلها بفن ووضوح إلى التلميذ الذي كان عليه أن يعيد إنتاجها مثبتاً أنه تلقنها وتسلمها، وأنه قادر على إعادة تمريرها بدوره.

كما نجد المؤرخون للتعليمية والمهتمون بها يطرحون تساؤلاً حول ما إن كانت هناك تعليمية واحدة عامة، تشكل علماً شاملاً للمواد والمجالات كلها، أم هناك تعليميات متعددة بتعدد المواد وتنوعها، هكذا نشأة تعليمية كل مادة على انفراد، أو ما يسمى بالتعليمية الخاصة.

قائمة المراجع المعتمدة:

- **روني وبير**، التربية العامة، تر: عبد الله عبد الدايم، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1977م.
- **التومي الشيباني**، تطور النظريات والأفكار التربوية، دار الثاقفة، بيروت، ط2، 1975م.
- **منير مورسي**، أصول التربية الثقافية والفلسفية، عالم الكتب القاهرة، (د.ط)، 1977م.
- **أوليفي ربول**، فلسفة التربية، تر: جهاد نعمان، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، (د.ط)، 1978م.
- **محمد لبيب النجحي**، مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، (د.ط)، 1981م.
- **أنطوان صباح**، تعليمية اللغة العربية، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2006م.
- **Cornu et Vergnioux**, A. La Didactique en Questions, Hachette, Paris, 1992.